أهمية الوطن من خلال آيات القرآن الكريم
دراسة وضوعية

إعداد الدكتور
غازي وصل سالم الذبياني
أستاذ مساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن
كلية العلوم والآداب فرع العلا
جامعة طيبة – المملكة العربية السعودية

أهمية الوطن من خلال آيات القرآن الكريم دراسة موضوعية

غازي وصل سالم الذبياني
قسم التفسير وعلوم القرآن ، كلية العلوم والآداب ، فرع العلا ، جامعة طيبة ، المملكة العربية السعودية .
البريد الإلكتروني: ghwgn@hotmail.com

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى جمع، وتحليل الآيات القرآنية، التي تتحدث عن الوطن، مفهوم الوطن، ومشروعية محبته، وأهمية الوطن من خلال الآيات القرآنية، والأسباب الأساسية للمحافظة على الوطن، وقد توصلت إلى نتائج وهي، عناية القرآن الكريم بالأوطان، للخروج من الأوطان لوعة، وحسرة، ومشقة للخارجين منها؛ سواء اختيارا، أو اضطرارا، فهو ابتلاء من الله وامتنان الله على عباده؛ بأن أورثهم أرض عدوهم، وأن الدفاع عن الوطن، واجب شرعا، وأن من أعظم العقوبات التي أنزلها الله بأعداء المسلمين؛ إجلائهم من أوطانهم.

كلمات مفتاحية: الوطن – أهمية – الديار – الخروج – القرآن الكريم.

The importance of the homeland through the verses of the an objective study،Noble Qur'an

Ghazi Wasl Saalim Al-Thubyaani.

Department of Exegeses and Sciences of the Glorious Qur'an، Faculty of Science and Arts in Al-Ula، Taibah University, Kingdom of Saudi Arabia.

E-Mail: ghwgn@hotmail.com

Abstract:

This study examines and analyzes the Qur'anic verses that talk about the homeland، the concept of the patriotism، the legitimacy of its love، the importance of the patriotism through the Qur'anic verses، and the basic reasons for preserving the homeland. Of which ; whether by choice or compulsion، and God's gratitude to His servants; That he bequeathed them the land of their enemy، and that defending the homeland is a legal duty، and that one of the greatest punishments that God has inflicted on the enemies of Muslims; Evacuation from their homelands، loyalty to the homeland.

Keywords: homeland , patriotism , home , exodus , the Noble Qur'an .

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد...

فإنه لما كان الوطن غاليا على النفوس، ومحببا للقلوب، صار لزاما على أفراد المجتمع، البحث عن كل ما من شأنه تعزيز المواطنة، ولقد ورد بيان أهمية الوطن، في آيات كثيرة من الذكر الحكيم، تتبعت أغلب هذه الآيات، فوجدت فيها بيانا، شافيا ،كافيا؛ لأهمية الوطن، في الحث على المحافظة عليه، والدفاع عنه، واللوم لمن خرج منه بغير ضرورة، وقسوة فراقه، وغير ذلك؛ مما جاء في الآيات، التي وردت في بيان أهمية الوطن، وحقوقه، على مواطنيه.

فأحببت أن أساهم ولو بشيء بسيط، لبيان أهمية الوطن من خلال آيات القرآن الكريم، لتعزيز القيمة الوطنية في نفوس المواطنين، لا سيما إذا كان هذا البيان بآيات قرآنية، وكان الوطن به مقدسات إسلامية، فبلادنا –ولله الحمد–؛ مهبط الوحي، وبها بيت الله الحرام، ومسجد خير الأنام، ومأوى أفئدة المسلمين جميعا، فالمحافظة عليها، محافظة على مقدسات المسلمين، وأمنها أمن لجميع المسلمين، يقصدها المسلمون من مشارق الأرض، ومغاربها، للحج، وللعمرة، وللصلاة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولزيارة قبره، وللسلام عليه، فحق بلادنا علينا حقان: حق المواطنة، وحق المقدسات الإسلامية.

فكتبت هذا البحث، وأسميته " **أهمية الوطن من خلال آيات القرآن الكريم، دراسة موضوعية**"

أهداف البحث:

١. بيان أهمية الوطن، من خلال آيات القرآن الكريم.
٢. إيضاح أهمية الوطن، من خلال بيان معاني الآيات المتعلقة بالوطن.
٣. دفع المواطنين إلى المحافظة على أوطانهم.

الدراسات السابقة:

١-**الدراسة الأولى:** سعد بن عبد الله السبر، **حب الوطن، دراسة تأصيلية،** إشراف الأستاذ الدكتور: سليمان عبد الله أبا الخيل، اشتملت هذه الدراسة على: تمهيد، وثلاثة مباحث.

التمهيد، وفيه أربعة مطالب: تعريف الحب لغة، واصطلاحا، تعريف الوطن لغة، واصطلاحا، تعريف حب الوطن باعتباره لقبا، الفرق بين المواطنة، والوطنية.

المبحث الأول، حدود الوطن، ومشروعية حب الوطن. وفيه ثلاثة مطالب: حدود الوطن، ومشروعية حب الوطن، وحب الوطن طبيعة، وغريزة، والغلو في حب الوطن.

المبحث الثاني، أنواع الوطن، وحقوقه، وشروطه. وفيه ثلاثة مطالب: أنواع الوطن، وحقوق الوطن، وشروط الوطن.

المبحث الثالث، نواقض الوطن.

٢-**الدراسة الثانية:** أبو القاسم محمد أبو شامة نجاة، أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة سوهاج – مصر

مقاصد حماية الوطن، دراسة تأصيلية من القرآن والسنة، اشتملت هذه الدراسة على مبحثين:

المبحث الأول مفهوم الوطن، وتأصيله، من القرآن الكريم، والسنة. وفيه أربعة مطالب: مفهوم الوطن في اللغة، والاصطلاح، والمصطلحات ذات الصلة بالوطن، وكلمة الوطن بالقرآن الكريم، وكلمة الوطن بالسنة النبوية.

المبحث الثاني، مقاصد حماية الوطن في ضوء القرآن الكريم، والسنة النبوية. وفيه مطلبان: مقاصد حماية الوطن من جانب الوجود، ومقاصد حماية الوطن من جانب العدم.

وخطة بحثي تختلف عنهما ، والله ولي التوفيق؛ عليه توكلت وإليه أنيب.

منهج البحث:

اتبعت المنهج الاستقرائي التحليلي، للآيات المتعلقة بالوطن، واستخرجت من خلالها، أهمية الوطن بالنسبة للمواطن، وبينت ذلك بالاستنباط وتعزيز ذلك ببيان المفسرين لتلك الآيات.

خطة البحث

يتكون البحث من: مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

المقدمة:

وتشمل: (أهداف البحث ،الدراسات السابقة، منهج البحث، خطة البحث)

المبحث الأول: مفهوم الوطن، ومشروعية محبته، وفيه أربعة مطالب.

المطلب الأول: تعريف الوطن لغة، واصطلاحا.

المطلب الثاني: مشروعية حب الوطن.

المطلب الثالث: الاعتدال في حب الوطن.

المطلب الرابع: تنمية محبة الأوطان.

المبحث الثاني: أهمية الوطن؛ من خلال الآيات القرآنية، وفيه عشرة مطالب.

المطلب الأول: المحافظة على الأوطان؛ من المواثيق الي أخذت على الأمم قبلنا.

المطلب الثاني: الأمر بالخروج من الأوطان من التكاليف الشاقة .

المطلب الثالث: الولاء والبراء في الأوطان.

المطلب الرابع: اللوم لمن خرج من وطنه خشية الموت .

المطلب الخامس: الهجرة مفارقة الوطن؛ وهي قاسية على النفس، ولذلك عظم ثوابها.

المطلب السادس: من أول أسباب الإذن للمسلين بالقتال إخراجهم من أوطانهم.

المطلب السابع: إخراج اليهود من المدينة؛ أعظم منحة للمؤمنين، وأشد نقمة على اليهود، لعظم الوطن

في النفس.

المطلب الثامن: مفارقة الوطن؛ لوعة، وحسرة، قسم لمن اكتوى بها من الفيء؛ لعظم ما أصابه.

المطلب التاسع: من أعظم دوافع القتال بشجاعة؛ الدفاع عن الوطن.

المطلب العاشر: امتنان الله على موسى وقومه بهلاك عدوهم فرعون، وقومه، وإيراثهم وطنهم.

المبحث الثالث: أسباب أساسية للمحافظة على الوطن.

المطلب الأول: تقوى الله عز وجل.

المطلب الثاني: الوحدة، وجمع الصف .

المطلب الثالث: طاعة ولي الأمر. والنصح له.

المطلب الرابع: شكر المنعم عز وجل.

الخاتمة. وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول

مفهوم الوطن، ومشروعية محبته

المطلب الأول

تعريف الوطن لغة، واصطلاحا

الوطن لغة: "وطن" الواو والطاء والنون: كلمة صحيحة، فالوطن: محل الإنسان، وأوطان الغنم مرابضها، وأوطنت الأرض اتخذتها وطنا، والميطان: الغاية، [١] والوطن: مكان الإنسان، ومقره، ومنه قيل: لمربض الغنم، وطن؛ والجمع أوطان. [٢]

قال في المعجم الوسيط: "أوطن" المكان، وطن به، والبلد اتخذه وطناً، ونفسه على كذا مهَّدها له، ورضّاها به، والموطن: الوطن، وكل مكان أقام به الإنسان لأمر، والمجلس، والمشهد من مشاهد الحرب مواطن، "الوطن" مكان إقامة الإنسان، ومقره، وإليه انتماؤه، ولد به، أو لم يولد. ومربض البقر، والغنم الذي تأوي إليه أوطان.[٣]

الوطن اصطلاحا: هو مولد الرجل، والبلد الذي هو فيه.[٤]

وقال الزحيلي : "هو إقليم الدولة التي ينتمي إليها ويحمل جنسيتها بحسب التقسيم الإقليمي للدول المعاصرة".[٥]

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة، باب الواو والصاد مادة (وطن) ١٢٠/٦، والمصباح المنير مادة (وطن) ٦٦٣/٢، ومختار الصحاح، مادة (وطن)٧٤٠/١.
(٢) ينظر: المصباح المنير مادة (وطن) ٣٤٢/١، ومختار الصحاح، مادة (وطن)٧٤٠/١.
(٣) ينظر: المعجم الوسيط ، مادة (وطن) ١٠٤٢/٢.
(٤) ينظر: التعريفات للجرجاني٢٥٣/١.
(٥) ينظر: الفقه الإسلامي وأدلته١٣٦٣/٢.

المطلب الثاني

مشروعية حب الوطن

أولاً: في القرآن الكريم:

لما كانت الأوطان عزيزة على النفوس، وجبلت النفوس على حب الأوطان، والانتماء إليها، نزل القرآن الكريم، موافقا لتلك الفطرة، شريطة أن لا تطغى تلك المحبة على محبة الله ورسوله ونصرة الدين، حيث قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤] حيث ذَكَر الله تعالى- المساكن -وهي محل الإقامة التي يبقى بها الإنسان ويعيش فيها على أنّها من الأمور التي يحبها الإنسان ويرتبط بها، ونبّه الله تعالى- على أن لا يطغى هذا الحب على محبة الله ورسوله، فحب الوطن الذي يأمن به الناس على أنفسهم، وأموالهم، وأديانهم، وأعراضهم، والذي يحوي مقدساتهم هو أيضا مما يحبه الله ورسوله وهو من الإيمان. (١)

ثانياً: في السنة النبوية

وكما وردت آيات في القرآن الكريم، تدل على مشروعية حب الوطن والاعتزاز به فإن السنة أيضا جاءت بذلك، فرسول الله -ﷺ- عندما خرج من مكة حزن لذلك حزنًا شديدًا وقال: (واللّهِ إنّكِ لخيرُ أرضِ اللّهِ وأحبُّ أرضِ اللّهِ إليَّ ولولا أن أَهْلَكِ أخرَجوني منكِ ما خَرجتُ). (٢) .

(١) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، (٢١٧/٢)

(٢) رواه الترمذي: سنن الترمذي، باب فضل مكة، (٧٢٢/٥) حديث رقم (٣٩٢٥) وقال حديث حسن غريب صحيح، وصححه الألباني.

وقد نزل في هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥] أي لرادك إلى بلدك مكة؛ لما يعلم سبحانه، وتعالى من شدة شوقه، وحنينه إليها، فعن ابن عباس: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: لرادك إلى مكة كما أخرجك منها. (١)

ولما دخل النبي ﷺ المدينة استوطنها، وأحبها، وكان من دعائه "اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت مكة أو أشد".(٢)

وعن أبي هريرة أنه قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فإذا أخذه رسول الله – ﷺ – قال " اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مُدّنا، اللهم إن إبراهيم عبدك، وخليلك، ونبيك، وإني عبدك، ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة، بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه". قال ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر. (٣)

(١) رواه البخاري: صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة القصص، (١٧٩٠/٤) حديث رقم (٤٤٩٥)، والطبري، جامع البيان،(٦٤١/١٩)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم،(٢٦٠/٦).
(٢) رواه مسلم: صحيح مسلم، كتاب الحج، باب الترغيب في سكنى المدينة، والصبر على لأوائها، (١٠٠٣/٢) حديث رقم (١٣٧٦).
(٣) رواه مسلم: صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي فيها بالبركة، (١٠٠٠/٢) حديث رقم (١٣٧٣)

المطلب الثالث

الاعتدال في حب الوطن

نحن أمة الوسطية والاعتدال قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣]، فحب الوطن مشروع؛ ولكن لا يقدم حب الوطن على حب الله، ورسوله، ودينه، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤] وهذه الآية يُستدلُّ بها على مشروعية حب الوطن، وهي أيضا دليل على الاعتدال في محبة الوطن، وعدم الغلو المذموم فيه؛ لأن غلو الإنسان في حب وطنه، لا يعد محظورا؛ بل مندوبا إليه، ولكن الغلو المذموم؛ هو المتجاوز للحد الشرعي في الحب، كتقديمه على محبة الله، ورسوله، ومصالح الدين، فالإنسان يحب وطنه، ويدافع عنه، ويفخر به، ويبذل كل شيء في سبيل الرقي به، كما سيأتي في بيان ذلك من خلال الآيات في هذا البحث.

فالشريعة الإسلامية لم تنه عن حب الوطن؛ بل ندبت إلى ذلك، ولكن بالضوابط الشرعية .

المطلب الرابع
تنمية محبة الأوطان

ويمكن تنمية هذه المحبة من خلال الآتي:

١- تربية المواطن على الكتاب، والسنة، فهما المعينان، الصافيان، اللذان يتحاكم إليهما الناس، في جميع شؤونهم الاجتماعية .

٢- بيان قيمة الوطن للناس، وفضل الأوطان عليهم .

٣- جمع الكلمة مصحوبة بالمحبة، والمودة بين أبناء الوطن ، والحرص على إيجاد جو من الألفة، والأخوة بين أبناء الوطن.

٤- غرس مبادئ الانتماء الإيجابي للوطن في نفوس المواطنين.

٥- البحث عن العيش الكريم على تراب الوطن، ويُمكن تحقيقه بغرس الهمم لدى كل مواطن، بحثاً عن كل ما هو أفضل تقدما، وتطورا، ورقيًّا.

٦- تربية النشء على المحافظة على ممتلكات الوطن وأمنه.

٧- المساهمة في خدمته ونهضته بالقول، والعمل، والفكر.

٨- بيان ارتباط المواطن بوطنه، وحبه له، حتى يرى تقديم نفسه، فداء لوطنه؛ هي من أبسط حقوق الوطن؛ ليقف المواطنون سداً منيعا ضد كل من تسول له نفسه الإخلال بأمن، واستقرار الوطن.

٩- الدفاع عن الوطن بأي وسيلة كانت قولاً، وفعلاً.

المبحث الثاني

أهمية الوطن من خلال الآيات القرآنية وفيه عشرة مطالب

المطلب الأول

المحافظة على الأوطان من المواثيق التي أُخِذَت على الأمم قبلنا

لما كانت الأوطان من الأمور المهمة بالنسبة للبشر، أخذ الله سبحانه، وتعالى على الأمم من قبلنا العهد والميثاق بأن لا يخرج بعضهم بعضا من الأوطان، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ [البقرة:٨٤-٨٥].

المتأمل لهذه الآيات الكريمة، يجد أنها تتحدث عن عدد من المواثيق التي أخذها الله على اليهود من قبلنا، ومنها: "ولا تخرجون أنفسكم من دياركم"، أي من أوطانكم، وذلك لأهمية الوطن، وعلاقته بالمواطن.

وقد اشتملت هذه الآيات على "أربعة أمور؛ تعتبر أساسا لمجتمع فاضل، يسوده السلام، والطمأنينة، والعدالة، والمودة، والرحمة"[(١)]. وهي:

١. "عدم سفك بعضهم دم بعض.
٢. عدم إخراج بعضهم بعضا.
٣. وجوب فداء الأسير"[(٢)] .
٤. ألا يتظاهر بعضهم على بعض.

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (١/١٣٠).
(٢) ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص:٥٨).

فالشاهد من ذلك "عدم إخراج بعضهم بعضا" وذلك من المواثيق التي أخذت على الأمم من قبلنا، إذ الإخراج من الأوطان، مما تعظم به الفتنة، وهو بمنزلة القتل، ومما يؤدي إليه، وهو شاقٌ على النفوس، بل أشق من القتل. (١) ومن أجل ذلك وجب تعزيز أهمية الوطن في نفوس المواطنين، وحثهم على الحافظة عليه، لما له من أهمية كبرى في حفظ الدين، والنفس، والمال.

(١) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (١٣٠/١)، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، (٢٤٥/٢)، والسمرقندي، بحر العلوم، (٧٠/١)، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، (٣٢٦/١)، والرازي، مفاتيح الغيب، (٥٩١/٣)، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة، (٢٧٣/١).

المطلب الثاني

الأمر بالخروج من الأوطان من التكاليف الشاقة .

الخروج من الوطن من الأمور الشاقة على النفس؛ وفراق الأوطان، يسبّب حرقة، ولوعة في النفس، ولذا قال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴾ [النساء:٦٦]

ممتننا تبارك وتعالى على عباده، في هذه الآية، إذ لم يكتب على عباده الأوامر الشاقة عليهم، كقتل النفس، والخروج من الديار، فليحمدوا ربهم، وليشكروه على تيسير ما أمرهم به، من الأوامر التي تسهل على كل أحد، ولا يشق فعلها. (١)

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي، أن يفكر العبد بما هو فيه من التكاليف السهلة الهينة على النفس، ويتفكر في ضد ذلك من التكاليف الشاقة على النفس، ليتبين له تيسير الله تبارك وتعالى عليه، وأنه لم يكلف بما يشق عليه، (٢) وفيها حث لكل مواطن آمن في وطنه، على التفكر في نقيض الأمن، وهو عدم الاستقرار في الوطن، وقلة الأمن، أو التهجير من الوطن، كيف سيكون الحال، وهل يؤدي الإنسان عباداته بأمن، وطمأنينة، وهل يأمن على نفسه، وأسرته، وماله، كما هو الحال لو كان آمنا في وطنه، حتما سيدرك المتأمل قيمة الأمن، والمحافظة على الوطن.

(١) ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص:١٥٨)، والقاسمي ،محاسن التأويل، (٢١٤/٣)

(٢) ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص:١٥٨)، والقاسمي ،محاسن التأويل، (٢١٤/٣)

والله سبحانه وتعالى حينما ينص على أنه لو كلف عباده بقتل النفس، والخروج من الوطن، يبين لهم أن هذه أمور شاقة على النفس، فمن رحمته بنا وشفقته علينا لم يكلفنا بها، وفي اقتران قتل النفس، بالخروج من الوطن، دليل على أهمية الوطن، وأنه لا فائدة من الحياة مع فراق الوطن، بل يشوبها الحزن والغربة، وعدم الاستقرار "فالجسم دار الروح والوطن دار الجسم"(١)، وتعد الهجرة من أعظم الأعمال عند الله سبحانه وتعالى؛ حيث لا يهاجر أحد، ويفارق وطنه، فرارا بدينه، إلا وهو صادق الإيمان.

وفي الآية إشارة إلى ما للوطن، والسّكن، من مكان مكين في قلب الإنسان، وأنه شيء أحبّ وآثر من كل ما يحرص الإنسان عليه، وأن نعيم الإنسان لا يجتمع إلا فيه، ولا يتمّ إلا به، وأن الغريب الذي لا وطن له، ولا سكن، هو إنسان ضائع شقيّ، وإن طعم أطيب المطاعم، ولبس أفخر الملابس، ونزل أحسن المنازل، ومعلوم أن هذه الحالة حالة شديدة، قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم ﴾ [النساء: ٦٦]، جعل مفارقة الأوطان، معادلة لقتل النفس، فينبغي على كل من سهل الله له عبادته، ولم يلجئه إلى مفارقة وطنه، وأهله، وعشيرته، أن يتقبلها بالإخلاص، وليترك التمرد، والعناد، حتى ينال خير الدارين."(٢)

(١) المراغي، تفسير المراغي، (٨٣/٥).
(٢) ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص:١٥٨)، والرازي، مفاتيح الغيب، (٥١٥/١٥)، والمراغي، تفسير المراغي، (٨٣/٥)، والتفسير القرآني للقرآن، (٨٢٨/٣)، والقاسمي ،محاسن التأويل، (٢١٤/٣).

المطلب الثالث

الولاء والبراء في الأوطان

الأصل عدم موالاة الكفار، ومناصرتهم، وحبهم، وأجازت الشريعة الإسلامية برهم، والإحسان إليهم، مالم يقاتلوننا، أو يخرجوننا من أوطاننا، وفي هذه الآيات دلالة واضحة على أهمية الوطن. قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة:٨-٩]

قسمت هذه الآيات الكفار إلى صنفين :

"**الصنف الأول:** لم يقاتلوا المسلمين في دينهم، ولم يخرجوهم من ديارهم"(١)، فهؤلاء قال تعالى في حقهم: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾.

أي: لا ينهاكم الله عن البر، والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين، والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها، ولا مفسدة، كما قال تعالى عن الأبوين المشركين إذا كان ولدهما مسلما: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان:١٥].

(١) ينظر: الشنقيطي، أضواء البيان، (٩٠/٨)

والراجح من أقوال المفسرين؛ أن هذه الآية، عامة في جميع الكفار، على اختلافهم في الملل، والنحل، والأديان، جميع من كانت صفته المسالمة، فلم يخصص به بعضًا دون بعض.

"**والصنف الثاني:** قاتلوا المسلمين، وأخرجوهم من ديارهم، وظاهروا على إخراجهم"[١]، وهؤلاء يقول تعالى فيهم: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ أي من قاتلنا، وحاول إيذاءنا منهم، فعلينا أن نقطع صلتنا به، وأن نتخذ كافة الوسائل لردعه وتأديبه، حتى لا يتجاوز حدوده معنا، فصار الميزان في الإحسان إليهم، وعدم الإحسان إليهم، المقاتلة، والإخراج من الأوطان، وربما يكون الدافع للمقاتلة هو الرغبة في الاستيلاء على الوطن، وعلى هذا فيكون الفيصل في برهم، وعدم برهم، وموالاتهم، وعدم موالاتهم، هو الإخراج من الوطن. [٢]

(١) ينظر: الشنقيطي، أضواء البيان، (٩٠/٨)،
(٢) ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٥٦) والطبري، جامع البيان، (٣٢٣/٢٣)، وطنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (٣٣٥/١٤)، والجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، (٢٢٧/٥).

المطلب الرابع
اللوم لمن خرج من وطنه خشية الموت

لما كانت المحافظة على الأوطان من المقاصد الشرعية، جاءت النصوص الشرعية باللوم لمن يخرج من وطنه خشية الموت، والتعجب من ذلك، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ [البقرة:٢٤٣].

فيقص تعالى علينا، قصة الذين خرجوا من ديارهم، على كثرتهم، واتفاق مقاصدهم، بأن الذي أخرجهم منها الخوف من الموت، من وباء، أو غيره، يقصدون بهذا الخروج النجاة من الموت، وفيه إنكار لخروجهم فرارا منه، والتعجب من شأنهم ليعتبر العقلاء بذلك، ويتيقنوا أن لا مفر من قضاء الله، فالمنهي عنه هو الخروج من الوطن فرارا من القدر؛ فإن الفرار من القدر لا يغنى شيئا، وفي الحديث "الفار من الطاعون، كالفار من الزحف، والصابر فيه له أجر شهيد "[1]، والاستفهام للتعجب، والاعتبار، ألم يصل إلى علمك! حال هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم، وحالهم بلغت من العجب مبلغا، لا ينبغي لمثلها أن تجهل، إذ هم قوم بلغوا حدّا من الكثرة؛ التي تدعو إلى الشجاعة، واطمئنان النفس، والدفاع عن الحمى، لا إلى الهلع، والجزع، وخور العزيمة، والهرب من الوطن خوفا من الموت، بمهاجمة الأعداء، وهذا هو الخوف والحذر الذي يولده الجبن في أنفس الجبناء، فيخيِّل إليهم أن الفرار من القتال، هو الواقي من الموت، وما هو إلا وسيلة تدني إليه، فيمكّن العدوّ من الرقاب، ويحفزه إلى الفتك بهم، والاستهانة بأمرهم.[2]

---

(١) رواه أحمد، مسند الإمام أحمد، باب مسند جابر بن عبد الله، (١٥٩/٢٣)، حديث رقم (١٤٨٧٥) ، قال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف عمرو بن جابر.

(٢) ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، (ص:١٠٦)، والخلوتي، روح البيان، (٥٢١/٩)، والمراغي، تفسير المراغي، (٢٠٧/٢)، وطنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (٥٥٥/١)، والحجازي، التفسير الواضح، (١٥٩/١)، والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (١٤٨/١)،

والمتتبع لأقوال المفسرين في هذه الآية، يجد فيها التعجب، واللوم لأولئك القوم، كيف يتركون أوطانهم، هربا، وخوفا من الموت، والحال أن الإنسان يموت فداء لوطنه، ولا يخرج منه، إذ لا فائدة من العيش بدون وطن، فكيف بمن كان وطنهم مهبط الوحي، ومأرز الإيمان، وبه بيت الله الحرام، ومسجد النبي ﷺ !.

وفي بيان مثل هذه الآيات للمواطنين، دافع قوي ليكونوا على أتم الاستعداد للدفاع عن أرضهم، ووطنهم، حتى لو وصل الأمر إلى أن يفدوا وطنهم بأنفسهم، فإنهم يقدمون أنفسهم فداء للوطن، ولا يفرون منه.

وابن عطية، المحرر الوجيز، (٣٢٧/١)، والزمخشري، الكشاف، (٢٩٠/١)، ومحمد رشيد، تفسير المنار، (٣٦١/٢)

المطلب الخامس

الهجرة مفارقة الوطن وهي قاسية على النفس ولذلك عظم ثوابها

لما كانت الهجرة قاسية على النفس، شاقة عليها، وعد الله سبحانه وتعالى المهاجرين في سبيله أجزل الثواب وأعظمه، قال تعالى:﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران:١٩٥]

"أي: أجاب الله دعاءهم، دعاء العبادة، ودعاء الطلب، وقال: إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى، فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملا موفورا، كلكم على حد سواء في الثواب، والعقاب، ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ ﴾ فجمعوا بين الإيمان، والهجرة، ومفارقة المحبوبات من الأوطان، والأموال، طلبا لمرضاة ربهم، وجاهدوا في سبيل الله" (١).

فـــ"بعد أن ربط الله الجزاء بالعمل، بيّن أن العمل الذي يستحقون به ما طلبوا من تكفير السيئات، ودخول الجنات، هو الهجرة من الوطن في سبيل الله، والإخراج من الديار، بإلجاء الكافرين إياهم إلى الخروج، والإيذاء في سبيل الله"(٢) فتركوا أوطانهم على ما يجدون في أنفسهم من الألم، والحسرة؛ بسبب مفارقة أوطانهم.

فلما ذكر تعالى، أنّه لا يضيع عمل عامل، ذكر من الأعمال السّنيّة؛ الّتي يستحقّون بها أن لا تضيع أعمالهم، وأن لا يترك جزاؤهم، فذكر الهجرة وهي: الخروج من الوطن الّذي لا يمكن إقامة دينه فيه، إلى المكان الّذي يمكن إقامة الدين فيه، وهذا من أصعب الأمور على النفس، إذ هو مفارقة المكان الّذي ربي فيه،

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص:١٦٢)
(٢) المراغي، تفسير المراغي، (١٦٦/٤)

ونشأ مع أهله، وعلى طريقتهم، ولولا نوازع الغوي المربّى، على وازع النّشأة ما أمكنه ذلك.

ألا ترى لقول الشّاعر ابن الرّوميّ:

وَحَبَّبَ أَوطَانَ الرجال إليهم مآربُ قَضَّاهَا الشَّبَاب هنَالكَا
إذَا ذَكَروا أَوطَانَهم ذَكَّرَتهم عهودَ الصّبَا فيهَا فَحَنّوا

وَقَالَ ابن الصَّقيّ رَفَاعَة بن عَاصم الفَقعَسيّ:

أَحَبّ بلَاد اللَّه مَا بَينَ مَنعج إلَيَّ وَسَلمَى أَن يصوب سحابها وَأَوَّل
بلَادٌ بهَا نيطَت عَلَيَّ تَمَائمي أَرض مَسَّ جلدي ترَابهَا
بهَا طَالَ تجراري ردائي وزيّنت رَيَّا الحَجل دَرمٌ كعَابهَا[٢][٣]

فهؤلاء الذين هاجروا، بأن تركوا أوطانهم التي أحبوها، إلى أماكن أخرى؛ من أجل إعلاء كلمة الله، وخرجوا من ديارهم، فرارا بدينهم من ظلم الظالمين، واعتداء المعتدين، وَأوذوا في سَبيلي؛ أي تحملوا الأذى، والاضطهاد في سبيل الحق، الذي آمنوا به، وَقاتَلوا أعداء الله، وَقتلوا وهم يجاهدون من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل، وعدهم الله تعالى بالأجر العظيم، فقال: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ لأمحون عنهم ما ارتكبوه من سيئات، ولأسترنها عليهم، حتى تعتبر نسيا منسيا. ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تجرى من تحت قصورها الأنهار التي فيها العسل المصفى، وفيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين"[٤]. فنلاحظ أن الجزاء من جنس العمل، فلما كان عملهم الذي تقربوا به إلى الله، وفعلوه من أجل الله، شديد القسوة على نفوسهم، شاق عليهم، استحقوا به الثواب الجزيل، وهو تكفير السيئات، وإدخالهم الجنة.

(١) ابن الرومي، (٣٢٢٨/١)
(٢) زهرة الأدب، (٨٨/٢)
(٣) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، (٤٧٨/٣)
(٤) ينظر: طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (٣٧٧/٢)

المطلب السادس

من أول أسباب الإذن للمسلين بالقتال إخراجهم من أوطانهم

لم يأذن الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين بمقاتلة أعدائهم الكافرين، إلا حينما أخرجوهم من أوطانهم، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[الحج:٣٩-٤٠]

كان المسلمون في أول الإسلام؛ ممنوعين من قتال الكفار، ومأمورين بالصبر عليهم، لحكمة إلهية، فلما هاجروا إلى المدينة، وحصل لهم منعة، وقوة، أُذِن لهم بالقتال، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين، فأذن الله لهم بقتال أعدائهم؛ وأذن لهم، لأنهم ظُلِموا، بمنعهم من دينهم، وأذيتهم عليه، وإخراجهم من ديارهم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فليستنصروه، وليستعينوا به، ثم ذكر صفة ظلمهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ أي: ألجئوا إلى الخروج بالأذية، والفتنة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ إلا أن ذنبهم؛ الذي نقم منهم أعداؤهم ﴿أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي: إلا أنهم وحدوا الله، وعبدوه مخلصين له الدين [١].

وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾: هذا وصف مؤيد للإذن بقتال المهاجرين؛ للمشركين، حقق الله به وقوع الظلم منهم عليهم، وأن من حقهم أن يدفعوا الظلم عن أنفسهم، وقد أجريَ هذا الوصف مجرَى المدح لهم، على أنه خبر لمبتدأ محذوف، وكأنه قيل: هم الذين أخرجوا من ديارهم بغير ذنب يستحقون به هذا الإخراج، إلا أنهم يخالفون من أخرجوهم في شركهم، فيقولون: ربنا الله، لا نعبد سواه، فهل يعتبر قول: الحق، وعقيدة الصدق ذنبا يستحقون التهجير، والإخراج من الوطن الغالي بسببه؟ إنه لظلم مبين، وعدوان أثيم.[٢]

فالذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، وهم المهاجرون، هم الذين وعدوا بالنصر، لأنهم نصروا الله، فخرجوا من ديارهم، وأموالهم، مهاجرين بدينهم الذي

(١) ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٣٩)
(٢) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (١٢٢٥/٦)، والطبري، جامع البيان، (٥٧٧/١٦)

هو حظهم من هذه الدنيا، والذي باعوا من أجله أنفسهم وأموالهم، وديارهم، وأوطانهم"[١].

فنلاحظ أنهم إنما أذن لهم بالقتال لأجل أنهم ظُلموا، فبين ذلك الظلم، بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ "فبين تعالى ظلمهم لهم بهذين الوجهين:

أحدهما: أنهم أخرجوهم من ديارهم.

الثاني: أنهم أخرجوهم بسبب أنهم قالوا: ربنا الله. وكل واحد من الوجهين عظيم في الظلم".[٢]

وقيل في بيان قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠]. "وقد أخرجوه فعلا بمكرهم المذكور، وبين جل وعلا أن النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الذين أخرجوا من ديارهم، لا ذنب لهم يستوجبون به الإخراج، إلا الإيمان بالله، كما قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾[الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ ﴾ [الممتحنة:١]، أي يخرجون الرسول وإياكم لأجل إيمانكم بربكم، وقال تعالى في إخراجهم له:﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾ [التوبة:١٣] إلى غير ذلك من الآيات"[٣]. فهذه الآيات يفهم منها الحث على مقاتلة، من أخرج المسلمين من وطنهم، وهي مكة آن ذاك.

ولعظم الوطن في نفوس الناس، جعله الله دافعا من الدوافع التي يؤذن بالقتال من أجلها، فلما أذن لهم تبارك وتعالى بمقاتلة عدوهم ذكر لهم ما يسوغ الإذن لهم بالقتال، ومن جملة ذلك الإخراج من الوطن.

(١) ينظر: الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (١٠٤٧/٩)
(٢) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (٢٢٩/٢٣)، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، (١٠١/١٤)، السمرقندي، بحر العلوم ، (٤٦٢/٢)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤٣٣/٥)، والإيجي، جامع البيان في تفسير القرآن، (٥٨/٣-٥٩)
(٣) ينظر: الشنقيطي، أضواء البيان، (٢٥٣/٧)

المطلب السابع

إخراج اليهود من المدينة أعظم منحة للمؤمنين، وأشد نقمة على اليهود لعظم الوطن في النفس

يمتن الله سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين، بأن أخرج اليهود من ديارهم، بعد أن ظنوا أنه لا يمكن لأحد أن يستطيع إخراجهم، فكان ذلك أشد لحسرة عليهم، وأعظم فرحا للمؤمنين، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [الحشر:٢]

فأخبر الله سبحانه وتعالى: في مطلع هذه السورة، "﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الحشر:١] بفعل المضي؛ لأن المخبر عنه تسبيح شكر؛ عن نعمة مضت قبل نزول السورة، وهي نعمة إخراج أهل النضير من ديارهم "(١).

فنصر الله لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب، من بني النضير، حين غدروا به، فأخرجهم من ديارهم، وأوطانهم، التي ألفوها، وأحبوها، وكان إخراجهم منها، أول حشر، وجلاء، كتبه الله عليهم، على يد رسوله ﷺ فأُجلوا إلى خيبر، فبيّن فضل الله على المؤمنين، ونعمته عليهم في إخراج عدوهم من ديارهم ولم يكن ذلك منتظرا، فقال: ﴿ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ ﴾ أي ما خطر لكم ذلك أيها المؤمنون ببال، لشدة بأسهم، ومنعتهم، وقوة حصونهم، وكثرة عَددهم، وعُددهم، وفى ذكر هذا تعظيم للنعمة، فإن النعمة إذا جاءت من حيث لا ترتقب، كانت مكانتها في النفوس أعظم، وكانت بها أشد سرورا، وابتهاجا، والمسلمون ما ظنوا أن يبلغ

(١) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٦٥/٢٨)

الأمر بهم إلى إخراج اليهود من ديارهم، ويتخلصوا من مكايدهم، وأشراكهم التي ما فتئوا ينصبونها للمؤمنين، وبذا قضى الله عليهم قضاءه الذي لا مردّ له، وصدق الله ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة:٢١]، ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ فأعجبوا بها وغرتهم، وحسبوا أنهم لا ينالون بها، ولا يَقْدرُ عليها أحد، وقدر الله تعالى وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون، والقلاع، ولا تجدي فيهم القوة، والدفاع، ولهذا قال: "فَأَتَاهم اللَّه من حَيث لَم يَحتَسبوا"﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ أي: من الأمر والباب، الذي لم يخطر ببالهم أن يؤتوا منه، وهو أنه تعالى﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عدد، ولا عدة، ولا قوة، ولا شدة، فالأمر الذي يحتسبونه، ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه؛ إن دخل، هو الحصون التي تحصنوا بها، واطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلى غير الله فهو عليه وبال، فأتاهم أمر سماوي نزل على قلوبهم، التي هي محل الثبات، والصبر، أو الخور، والضعف، فأزال الله قوتها، وشدتها، وأورثها ضعفا، وخورا، وجبنا، لا حيلة لهم، ولا منعة معه، فصار ذلك عونا عليهم.

فقتل رئيسهم كعب بن الأَشراف، وقتله ممَّا أَضعف قوتهم، وفل شوكتهم، وسلب قلوبهم الأَمنَ، والاطمئنانَ، وألبسهم أردية الخضوع، والاستكانة ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ بإلقاء الخوف الشديد فيها بقوة فأخرجوا من وطنهم، وذلك أعظم مصيبة أصيبوا فيها، وأعظم نصر منحه الله نبيه صلى الله عليه وسلم، وأصحابه.(١)

(١) ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، (ص:٨٤٩)، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم، (١٣٤٩/١٠-١٣٥٠)، والسمرقندي، بحر العلوم، (٤٢٥/٣)، والمراغي، تفسير المراغي، (٣٣/٢٨-٣٤)، والقاسمي، محاسن التأويل، المؤلف (١٨٣/٩).

المطلب الثامن

مفارقة الوطن لوعة وحسرة قُسِمَ لمن اكتوى بها من الفيء لعظم ما أصابه

مفارقة الوطن شاقة على النفس، لما فيها من الغربة عن الديار، والأوطان، ولقد أدرك الشارع ذلك، فجعل لهم قسما من الفيء، جبرا لخواطرهم، وتأليفا لنفوسهم، قال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[الحشر:٨]

فذكر تعالى الحكمة، والسبب الموجب لجعله تعالى الأموال؛ أموال الفيء لمن قدّرها له، وأنهم حقيقون بالإعانة، مستحقون لأن تجعل لهم، وأنهم ما بين مهاجرين؛ قد هجروا المحبوبات والمألوفات، من الديار، والأوطان العزيزة على النفوس، المحببة إلى القلوب، والأحباب، والخلان، والأموال، رغبة في الله، ونصرة لدين الله، ومحبة لرسول الله، فهؤلاء هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى إيمانهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، والعبادات الشاقة، بخلاف من ادعى الإيمان وهو لم يصدقه بالجهاد، والهجرة، وغيرهما من العبادات. (١)

"وقيل: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ بيان لقوله: ﴿ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ [البقرة:١٧٧]وكرر لام الجر، لما كانت الجملة الأولى مجرورةً باللام ليبيّنَ أَنَّ "البدل" إنَّما هو منها، ثم، وصفهم تعالى بالصفة التي تقتضي فقرهم، وتوجب الشفقة عليهم، وهي إخراجهم من ديارهم وأموالهم يَبتَغونَ فَضلًا منَ اللَّه وَرضواناً، يريد به الآخرة والجنة".(٢)

(١) ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٥١)، و التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (١٣٥٨/١٠)، و السمرقندي، بحر العلوم، (٤٢٨/٣)، و تفسير مقاتل ، (٢٧٩/٤) المراغي، تفسير المراغي (٤٢/٢٨).

(٢) ينظر: الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، (٤٠٨/٥)

"وهذا الذي أفاءه الله على رسوله من أهل القرى، هو لله ولرسوله، ولذى القربى للرسول، ولليتامى، وللمساكين، ولابن السبيل، وللفقراء المهاجرين، الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، يبتغون فضلا من الله ورضوانا، وينصرون الله ورسوله؛ فكأنّ ما لله، ولرسوله، ولذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، هم هؤلاء المهاجرون الفقراء ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾، وكأن هذا الفيء الذي أفاءه الله على الرسول، هو من أجل هؤلاء المهاجرين الفقراء، ليكون مواساة لهم في هذه الغربة، التي اختاروها؛ ابتغاء مرضاة الله، وآثروا بها دينهم على أهليهم، وأموالهم، وأوطانهم "(١).

وقيل في الآية بيان لحال الفقراء المستحقين لمال الفيء؛ أنهم الذين أخرجوا من ديارهم، وأموالهم، يبتغون فضلا من الله، ورضوانا أي؛ خرجوا من ديارهم، وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله، ورضوانه، وينصرون الله ورسوله،﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾أي؛ هؤلاء الذين صدقوا قولهم، بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين.(٢)

فهؤلاء الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم، وأموالهم، كانت لهم ديار وأموال، أخرجوا منها كلها، فلئن كان الأنصار؛ واسوا إخوانهم المهاجرين، ببعض أموالهم، وقاسموهم ممتلكاتهم، فإن المهاجرين لم يتنازلوا عن بعض أموالهم فحسب؛ بل تركوها كلها: أموالهم، وديارهم، وأولادهم، وأهلهم، فصاروا فقراء، بعد إخراجهم من ديارهم، وأموالهم، ومن يخرج من كل ماله، وديارة، ويترك أهله وأولاده، لا يكون أقل تضحية ممن آثر غيره ببعض ماله، وهو مستقر في أهله، وديارة، فكأن الله عوضهم بهذا الفيء عما فات عنهم. (٣)

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، (٨٥٩/١٤)
(٢) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٦٨/٨)
(٣) ينظر: الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (٤٣/٨)

المطلب التاسع
من أعظم دوافع القتال بشجاعة الدفاع عن الوطن

حب الوطن غريزة في النفوس، ويهون في سبيله كل شيء، فيقدم الإنسان نفسه رخيصة، ويعرضها لأعظم خطر وهو القتل، ويرى ذلك أمرا سهلا هينا في سبيل الدفاع عن الوطن، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾ [البقرة:٢٤٦].

يقص تعالى على نبيه قصة الملأ من بني إسرائيل، وهم الأشراف، والرؤساء، وخص الملأ بالذكر، لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم، ليتفقوا فيتبعهم غيرهم، على ما يرونه، وذلك أنهم أتوا إلى نبي لهم بعد موسى عليه السلام، فقالوا له: ﴿ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا ﴾ أي: عيّن لنا ملكا ﴿ نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ ليجتمع متفرقنا، ويقاوم بنا عدونا، ولعلهم في ذلك الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم، كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت، كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيس، فالتمسوا من نبيهم تعيين ملك يرضي الطرفين، ويكون تعيينه خاصا لعوائدهم، وكانت أنبياء بني إسرائيل تسوسهم، كلما مات نبي، خلفه نبي آخر، فلما قالوا لنبيهم تلك المقالة "قال" لهم نبيهم ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ﴾ أي: لعلكم تطلبون شيئا وإذا كتب عليكم لا تقومون به، فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها، واعتمدوا على عزمهم، ونيتهم، فقالوا: ﴿ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾ أي: أي شيء يمنعنا من القتال وقد ألجأنا إليه بالقهر، والغلبة؛ بأن أخرجنا من أوطاننا، وسبيت ذرارينا، فهذا موجب

لكوننا نقاتل، ولو لم يكتب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا، فجعلوا ذلك علَّةً قويَّة توجب التَّشديد في أمر الجهاد؛ لأنَّ من بلغ منه العدوّ هذا المبلغ، فالظَّاهر من أمره الاجتهاد في قمع عدوّه، ومقاتلته؛ فالإخراج من الوطن؛ علة قوية توجب التشديد في أمر القتال، والدفاع عن الوطن. (١) قال ابن عثيمين –رحمه الله–: "قوله تعالى:﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ ﴾؛ أيّ مانع لنا يمنعنا من القتال في سبيل الله، وقد وجد مقتضي ذلك؛ وهو قولهم:﴿ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا ﴾؛ فالإنسان إذا أخرج من داره، وبنيه فلا بد أن يقاتل لتحرير البلاد، وفكّ الأسرى".

وقال موضحا ذلك "ولهذا تجد الجبان إذا حُصر يأتي بما عنده من الشجاعة، ويكون عنده قوة للمدافعة".

وقال: "إن من مبيحات القتال إخراج الإنسان من بلده، وأهله ليرفع ظلم الظالمين". (٢)

(١) ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص:١٠٧)، والطبري، جامع البيان في تأويل القرآن،(٣٠٠/٥)، والبروسوي، روح البيان، (٣٨٢/١)، والمراغي، تفسير المراغي، (٢١٦/٢)، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم، (٤١٨/١) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٣٠٥/١)، والقاسمي، محاسن التأويل، (١٧٨/٢)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٤٠٨/٥).

(٢) ينظر: تفسير الفاتحة والبقرة، (٢٠٨-٢١٠)

المطلب العاشر

امتنان الله على المسلمين بإيراثهم أرض اليهود ومستوطنهم

يمتن الله سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين بأن أجلى عدوهم اليهود من ديارهم، وأورثهم إياها، قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢٧]

فقد ورث المسلمون ما كان للقوم من أرض، وديار وأموال؛ أرضا كانت من قبل، من شرفها وعزتها عند أهلها، لا يمكنون من وطئها، فمكنهم الله وخذل عدوهم، وغنمتم أموالهم، وقتلتموهم، وأسرتموهم. وهذا فضل الله على المؤمنين، يجب أن يذكروه، ويشكروا لله فضله وإحسانه.(١)

والله سبحانه وتعالى، حينما يذكِّر المؤمنين، بهذا النصر العظيم، الذي منحه عبادة المؤمنين، ليبيِّن لهم أنه مكَّنهم من شيء عظيم، وهو وطن أعدائهم؛ منحة لهم، ومحنة لعدوهم، والعدو إذا خسر وطنه فماذا بقي له، فالوطن عزيز على النفس، محل أمنها، وقرارها، وسعادتها.

(١) ينظر: الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٦٨٧/١١)، والرازي، مفاتيح الغيب، (٧٧/١٩)، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص:٦٦٢)، والشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (١٤/٨-١٥).

المبحث الثالث

أسباب أساسية للمحافظة على الوطن

المطلب الأول

تقوى الله عز وجل

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥]

وعد الله سبحانه وتعالى، المتقين الصالحين؛ بأن يستخلفهم في الأرض، ووعد الله لا يخلف، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران]، فيا من أردتم المحافظة على أوطانكم، حافظوا على دينكم، وطاعتكم، فإن الله وعد الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات بالاستخلاف في الأرض؛ كما استخلف الذين من قبلهم من الأمم، وهو وعد؛ يعم جميع الأمة. وقيل: هو خاص بالصحابة، ولا وجه لذلك، فإن الإيمان، وعمل الصالحات لا يختص بهم، بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة، ومن عمل بكتاب الله، وسنة رسوله، فقد أطاع الله ورسوله، "واللام" في ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾؛ جواب لقسم محذوف، أو جواب للوعد بتنزيله منزلة القسم، لأنه ناجز لا محالة، ومعنى ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك في مملوكاتهم، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وظاهر قوله: ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ كل من استخلفه الله في أرضه فلا يختص ذلك ببني إسرائيل، ولا أمة من الأمم دون غيرها. (١)

(١) ينظر: الطبري جامع البيان، (٢٠٨/١٩)، والقاسمي، محاسن التأويل، (٤٠٣/٧)، والشوكاني، فتح القدير، (٥٥/٤).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٥]. الزبور: الكتاب، يراد به جنس الكتاب فيشمل الكتب المنزلة، كالتوراة، والإنجيل، وزبور داود، وغير ذلك. والمراد بالذكر: أم الكتاب، وعليه فالمعنى: ولقد كتبنا في الكتب المنزلة على الأنبياء أن الأرض يرثها عبادي الصالحون بعد أن كتبنا ذلك في أم الكتاب، وهذا المعنى واضح لا إشكال فيه. وقيل: الزبور في الآية زبور داود، والذكر: التوراة. وقيل غير ذلك. وأظهر الأقوال: أن المراد بالزبور جنس الكتاب .

والمراد بالأرض في قوله: ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ أرض العدو، يورثها الله المؤمنين في الدنيا، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الاحزاب: ٢٧] وقوله: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقوله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[الأعراف: ١٢٨] وقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤] إلى غير ذلك من الآيات.(١)

(١) ينظر: الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (٢٤٩/٤)، والطبري، جامع البيان، (٥٤٧/١٧)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٣٨٤/٥)، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير الكريم المنان، (٥٣١/١).

المطلب الثاني

الوحدة الوطنية

قال الله تعالى ممتنًّا بذلك على عباده: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران:١٠٣].

يأمر الله تبارك وتعالى، عباده بالتمسك بدينه الذي أمرهم به، وعهده الذي عَهده إليهم في كتابه، من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله.

فعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله يرضى لكم، ويكره لكم ثلاثا؛ فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا، ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل، وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال." (١)، فالاعتصام بحبل الله، والاجتماع، وعدم الفرقة، وتوحيد الصف من أعظم الأسباب التي تقوي شوكة المسلمين، وتزيد هيبتهم في نفوس عدوهم، فلا أحد يفكر في انتهاك أي حرمة لهم، لا أوطانهم، ولا أعراضهم، ولا دمائهم. (٢)

وقال: ﷺ في الاجتماع، وتوحيد الصف، أيضا : "مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجسد؛ بالسهر. والحمى." (٣)

---

(١) رواه مسلم: صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات، (١٣٤٠/٣) حديث رقم (١٧١٥).

(٢) ينظر: الطبري، جامع البيان، (٧٠/٧)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٨٩/٢)، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير الكريم المنان، (١٤١/١)، والقاسمي، محاسن التأويل، (٣٨٢/٢)، والمراغي، تفسير المراغي، (١٦/٤).

(٣) رواه البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، (٢٢٣٨/٥) حديث رقم (٥٦٦٥) ومسلم: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، (١٩٩٩/٤) حديث رقم (٢٥٨٦).

وقال ﷺ : "المسلم؛ أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة."(١)

(١) رواه البخاري: صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، (٨٦٢/٢) حديث رقم (٢٣١٠) ومسلم: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم، (١٩٩٦/٤) حديث رقم (٢٥٨٠).

المطلب الثالث

طاعة ولي الأمر والنصح له

قال الله جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء:٥٩]

أمر الله تبارك وتعالى بطاعة أولي الأمر وهم: الولاة على الناس، من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم، ودنياهم؛ إلا بطاعتهم، والانقياد لهم، طاعة لله، ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك "فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"[١]. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل "وأطيعوا" عند الأمر بطاعتهم، وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا تكون في معصية الله.[٢]

ويقول ﷺ : "على المرء المسلم، السمعُ، والطاعة؛ فيما أحب، وكره، إلا أن يؤمر بمعصيةٍ؛ فإذا أُمر بمعصية فلا سمع، ولا طاعة."[٣]

ويقول ﷺ : "من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، فميتته جاهلية."[٤]، فطاعة ولاة الأمور والالتفاف حولهم من أسباب القوة، واجتماع الكلمة، وعز الوطن، واستقراره، والأمن على الدماء، والأموال، والأعراض.

---

(١) رواه أحمد، مسند الإمام أحمد، باب مسند علي بن أبي طالب، (٣٣٣/٢)، حديث رقم (١٠٩٤) قال شعيب الأرنؤوط: صحيح على شرط الشيخين.
(٢) ينظر: الطبري، جامع البيان، (٥٠٢/٨)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٣٤٥/٢).
(٣) رواه مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء، (١٤٦٩/٣) حديث رقم (١٨٣٩)
(٤) رواه البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية، (٢٦١٢/٦) حديث رقم (٦٧٢٤) ومسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، (١٤٧٧/٣) حديث رقم (١٨٤٩).

ويقول – ﷺ–: "الدين النصيحة". قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: "لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم."[١]

المطلب الرابع: شكر المنعم عز وجل.

لما كان شكر النعمة؛ سببا من أسباب دوامها في النفس، والمجتمع، كان كفرها سببا لنقيض ذلك، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل:١١٢]

لما كان كفر النعمة سببا لزوالها، ساقه الله لنا مثلا في كتابه، وقد اختلف المفسرون، هل المراد بهذه القرية قرية معينة، أو المراد قرية غير معينة، بل كل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة؟ فذهب الأكثر إلى الأول وصرحوا بأنها مكة، والثاني أرجح لأن تنكير قرية يفيد ذلك، ومكة تدخل في هذا العموم دخولا أوليا، وأيضا يكون الوعيد أبلغ، والمثل أكمل، وغير مكة مثلها، وعلى فرض إرادتها ففي المثل إنذار لغيرها من مثل عاقبتها، ثم وصف القرية بأنها كانت آمنة، غير خائفة، مطمئنة غير منزعجة، أي: لا يخاف أهلها ولا ينزعجون، يأتيها رزقها رغدا واسعا من كل مكان من الأمكنة التي يجلب ما فيها إليها، فكفرت أي: كفر أهلها بأنعم الله التي أنعم بها عليهم، وهذا الكفر منهم هو كفرهم بالله سبحانه، وتكذيب رسله فأذاقها الله أي: أذاق أهلها لباس الجوع والخوف[٢] بسبب عدم شكرهم نعمة الله، فلو شكروا نعمة الله وآمنوا برسله وصدقوا وامتثلوا أوامر الله ورسله لأبقى الله عليهم نعمته سبحانه، وتعالى، ولكنهم كفروا، وكذبوا، فأذاقهم الله لباس الجوع، والخوف، وعدم الأمن.

(١) رواه مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أن الدين النصيحة، (٧٤/١) حديث رقم (٥٥).
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٦٠٨/٤)، الشوكاني، فتح القدير، (٢٣٨/٣)، السعدي، تيسير الكريم الرحمن، (٤٥١/١)، القاسمي، محاسن التأويل، (٤١٥/٦).

"قال الضحاك: ما عذب الله قوماً قط ولا سلبهم النعمة، ولا فرق بينهم وبين العافية، حتى كذبوا رسلهم، فلما فعلوا ذلك ألزمهم الذل وسلبهم العز، فذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الأنفال:٥٣]"(١)

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٧]. بيّن تعالى امتنانه على قريش فيما أحلهم من حرمه، الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والبادي، ومن دخله كان آمنا، فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضا، ويقتل بعضهم بعضا، وقوله: ﴿ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴾ أي: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد، و ﴿ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨] ، وكفروا بنبي الله، وعبده، ورسوله، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله، وألا يشركوا به، وتصديق الرسول، وتعظيمه، وتوقيره، فكذبوه، وقاتلوه، وأخرجوه من بين ظهرهم؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم ببدر، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم. (٢) ولهذا وجب على جميع المجتمعات الإسلامية؛ شكر نعمة الله عليهم، رجاء الأمن في أنفسهم، وفي أوطانهم.

(١) السمرقندي، بحر العلوم، (٢٧/٢).
(٢) الطبري، جامع البيان،(٦٢/٢٠)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٢٩٥/٦).

الخاتمة

بعد التأمل والتدبر في الآيات القرآنية التي تتحدث عن الوطن، وتبين أهميته توصلت إلى النتائج والتوصيات التالية:

١. عناية القرآن الكريم بالأوطان.

٢. ذكر القرآن الخروج من الأوطان، على أنه لوعة، وحسرة، ومشقة للخارجين منها؛ سواء اختيارا، أو اضطرارا ، فهو من أعظم المحن والابتلاءات.

٣. امتنان الله على عباده؛ بأن أورثهم أرض عدوهم.

٤. أن الدفاع عن الوطن، واجب شرعا.

٥. من أعظم العقوبات التي أنزلها الله بأعداء المسلمين؛ إجلائهم من أوطانهم.

٦. الولاء والبراء من أجل الوطن.

٧. أن تقوى الله، واجتماع الكلمة، وطاعة ولاة الأمر، أسباب أساسية للمحافظة على الأوطان.

هذا ما استطعت جمعه في هذا الموضوع، وآخر دعوانا؛ أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع

١. إبراهيم مصطفى، وآخرون. "المعجم الوسيط". تحقيق مجمع اللغة العربية، (دار الدعوة).

٢. ابن الرومي، علي بن العباس بن جريج "ديوان ابن الرومي"، (دار الكتب العلمية، لبنان).

٣. ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال. "مسند الإمام أحمد بن حنبل". تحقق شعيب الأرنؤوط، وآخرون، (مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م).

٤. ابن عادل، سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي. "اللباب في علوم الكتاب" .تحقق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض. (دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م).

٥. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر "التحرير والتنوير" (الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ).

٦. ابن عثيمين، محمد بن صالح بن محمد "تفسير الفاتحة والبقرة". (دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ).

٧. ابن عطية، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن. "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز". تحقق عبد السلام عبد الشافي محمد. (دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ).

٨. ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير. "تفسير القرآن العظيم". تحقق سامي بن محمد السلامة. (دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

٩. أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى. "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم". (دار إحياء التراث العربي – بيروت).

١٠. أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي "البحر المحيط في التفسير". تحقق صدقي محمد جميل. (دار الفكر – بيروت).
١١. أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا. "معجم مقاييس اللغة". تحقيق عبد السلام هارون. (دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤٢٠ه–١٩٩٩م، الطبعة الثانية).
١٢. الإيجي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد "جامع البيان في تفسير القرآن". (دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤ م).
١٣. البلخي، مقاتل بن سليمان بن بشير. "تفسير مقاتل بن سليمان". تحقق عبد الله محمود شحاته، (دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٣ هـ).
١٤. البخاري، محمد بن إسماعيل. "الجامع الصحيح المختصر". تحقيق : د. مصطفى ديب البغا. (دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ – ١٩٨٧).
١٥. البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد. "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" تحقق محمد عبد الرحمن المرعشلي.(دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ).
١٦. الترمذي، محمد بن عيسى. "سنن الترمذي" . تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، (دار أحياء التراث العربي، بيروت).
١٧. الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف. "الجواهر الحسان في تفسير القرآن". تحقق: الشيخ محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود. (دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ).
١٨. الجرجاني، علي محمد علي الجرجاني "التعريفات" تحقيق إبراهيم الأبياري. (دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٥ه، الطبعة الأولى).

١٩. الجزائري، جابر بن موسى بن عبد القادر "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير". (مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٢٠. الحجازي، محمد محمود "التفسير الواضح". (دار الجيل الجديد – بيروت، الطبعة: العاشرة – ١٤١٣ ه).

٢١. الحسيني، محمد رشيد بن علي رضا "تفسير القرآن الحكيم ـــ تفسير المنار". (الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م).

٢٢. الخطيب، عبد الكريم يونس. "التفسير القرآني للقرآن" (دار الفكر العربي – القاهرة).

٢٣. الخلوتي، إسماعيل حقي بن مصطفى "روح البيان". (دار الفكر – بيروت).

٢٤. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله. "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان". تحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. (مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠ه).

٢٥. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر. "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" (دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، عام النشر : ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م).

٢٦. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد "فتح القدير". (دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ).

٢٧. السمرقندي، نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم. "بحر العلوم".

٢٨. الرازي، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين. "مفاتيح الغيب".(دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ ه).

٢٩. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر "مختار الصحاح" تحقيق محمود خاطر. (مكتبة لبنان، بيروت، ١٤١٥ه/١٩٩٥م، الطبعة الأولى).

٣٠. الرافعي، أحمد بن محمد بن علي "المصباح المنير في غريب الشرح الكبير" (المكتبة العلمية، بيروت).
٣١. الزحيلي، وهبة الزحيلي "الفقه الإسلامي وأدلته" (دار الفكر، دمشق، الطبعة: الرابعة).
٣٢. الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد. "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل". (دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ).
٣٣. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد. "جامع البيان في تأويل القرآن" تحقق أحمد محمد شاكر، (مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠م).
٣٤. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد. "محاسن التأويل" (دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ).
٣٥. القيرواني، إبراهيم بن علي الحصري "زهر الآداب وثمر الألباب". تحقيق أ. د :يوسف على طويل. (دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م، الطبعة : الأولى).
٣٦. النيسابوري، الحسن بن محمد بن حسين. "غرائب القرآن ورغائب الفرقان". تحقق الشيخ زكريا عميرات. (دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٦ ه).
٣٧. النيسابوري، مسلم بن الحجاج. "صحيح مسلم". تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. (دار إحياء التراث العربي –بيروت)
٣٨. المراغي، أحمد بن مصطفى. "تفسير المراغي". (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م).
٣٩. طنطاوي، محمد سيد. "التفسير الوسيط للقرآن الكريم" (دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى)
٤٠. مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر. "التفسير الوسيط للقرآن الكريم". (الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة: الأولى، ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م).